



لم أتخيل وأنا أقبض "مساري" من السياح الألمان من أجل أن أنزل إلى قلب "الهوية" لأنقط صوراً بكاميراهم، أن يوماً سيأتي على مشوقي وباب رزقي ومولى الحمام والطُّبُن تكون فيه مقبرة للحم الآدمي، وخزانَ أسرار المجرمين القتلة. الأنكى من كل هذا أنني سأنزل ليس من أجل التقاط صور لجمال الطبيعة وأسرارها؛ وإنما لالتقاط جسد أخي. صمت عمر، عضّ على شفته السفل وقطّب حاجبيه محاولاً تدارك دموعه. نهض. "رایح أجیب الشای". احترمت لحظات إنسانيته، وألم التذكرة.

عاد وقد غسل وجهه حاملاً بيده إبريق شاي وأكواب. بادرني بالحديث: "لازم هالصندوق ينفتح. لازم تعرف الناس، كل الناس، اللي يصير علينا.. و"رب" الكعبة هذا حرام".

عندما كنا صغاراً، كان الأهل يخوفونا من الهوية والسعّلّوة التي تسكنها، وكنا نتداول القصص ونجزم ونحلف أحياناً بأننا رأينا السعلّوة وهي تدخل أو تخرج من الهوية. وكان الحمام والطُّبُن يخرج رفوفاً من جوف الهوية ويعود إليها. وكنا نتداول أن الحمام لـ"السعّلّوة"، ومن يصطاد منه ستعرفه السعلّوة وستأتي في الليل لتبتلعه بثيابه.

كنت متمراً مثل كثرين بعمر المراهقة. كان عمري خمسة عشر عاماً عندما قررت أن أصطاد من الحمام ول يكن ما يكون. كبرت الفكرة في رأسي أمام تحدي أقراني. سرقنا حبالاً من أهالينا، وذهبنا إلى مسكن السعلّوة. ربطت الجبل إلى خصري من جهة، وإلى صخرة كبيرة من الجهة الثانية. ونزلتُ. وهرب رفاقي باتجاه القرية. نزلت دون أن أنظر إلى الأسفل. عميقاً في جوف الهوية بدأت أشعر برياح باردة رطبة. فكرت أنها أنفاس السعلّوة. أغمضت عيني وتتابعت النزول إلى نهاية الجبل. كانت الحمامات تفرّ من حولي، ويفرّ قلبي معها، ولكن ما كان يحفزني ويشجعني هو إصراري على أن أتفاخر بمعمارتي، وأن أكون محط إعجاب بنات القرية. فتحت عيني. ضوءٌ خافت جداً، أكاد لا أرى. وقفّت على صخرة ناتئة. سحرني المنظر. جلست أتأمل، وتيار الهواء البارد يجذبني إلى الأسفل نحو الجوف الأظلم. الآن أرى بيت السعلّوة من الداخل: وسريع عميق الحالات والمسارب. من جهة الشرق والشمال جدران مستوية لا نتواءات فيها، ومن الجنوب صخورٌ ناتئة ومخاوف، ومن الغرب كذلك.

جلتُ بنظرِي مرات ومرات مستكشفاً، وأصغيتُ طويلاً إلى خرير المياه من الجدران، وإلى صوت تدفق نهر جارٍ يتناهی إلى سمعي من عمق الدهليز أمامي. لا أدرى كم لبشت عندما قررت أن أصعد. وضعت في حضني "جلاعيط" حمام، وبدأت بالتسليق. للأسف، اتسحقت الكائنات الصغيرة ما بين ضغط جسمي والحائط،

وسائل دم على ثوبه وساقي.

بينما كنت أقترب من الوصول إلى فوهة الهوّة، أخذت أسمع لغطاً وأصواتاً كثيرة. بدأت بفك الحبل عن خصري، وأنا أغمض عيني وأفتحهما ليتأقلم بصري مع ضوء النهار. هناك على مد النظر كان أهل القرية مجتمعين، أطفال ونساء ورجال. لم يقترب أحد. فككت الحبل، وسحبته خلفي. اتجهت صوبهم. تراجع كثيرون، وهرب الأطفال. وحدها أمي ركضت باتجاهي، وعندما رأت الدم على ثيابي أغمي عليها. وقع علىي أن أحمل لساعات عقال أبي على مغامرتي. تفقدتني أمي بعد أن استرجمت وعيها في كل أنحاء جسدي، وأشارت الفتيات بأيصالهن بعيداً عندما رفعت أمي ثوبي لتأكد أن السعلوة لم تأكل عضوي.

مشت القرية كلها معي وأنا أسمع أحاديثهم عن البلاء الذي سيعم القرية بسبب اقتحامي بيت السعلوة، واعتدائي على حماماتها. أقسم بالله أكثر من عائلة هجرت القرية خوفاً.

كان ذلك صيف 1990 :

هذه أول مرة، حسب الجميع، ينزل أحد إلى جوف الهوّة. أيام ويتحول غضب أبي إلى مفاخرة. وشرع الناسُ ينسجون حكايات لم أحکها. حكايات عما رأيت، وعما دار بيني وبين السعلوة، وشكلها، وعيونها التي هي بالطول، وبيتها من الداخل، وفراشها المكون من عظام آدمية.

هناك دائماً مرة أولى لكل شيء، وهكذا تماماً هي الثورة: يجب أن ندخل إلى الهوّة، هوّة النظام و«التنظيم» (داعش)، وكل من هم على شاكلتهم. صدقني ما في سعلوة، السعلوة هي فقط خوفنا.

لم أنقطع عن الهوّة والسياح سوى للدراسة، ثم لخدمتي الإلزامية. أصبحت الهوّة مصدر رزقي من خلال الخدمات التي أقدمها للسياح.

لم أكن أعرف أن هذا الجمال سيتحول إلى مقبرة، وأن الحمام سيأكل اللحم الآدمي! أتصدق أن الحمام يأكل اللحم الآدمي؟ أول من قام برمي جثث في الهوّة كان فيصل البَلُو، أمير جبهة النصرة في سلوك، وذلك يوم 18/9/2012 (صارَ من الدواعشاليوم، بعد أن اعتقلوه لشهر بتهمة السرقة. هو أمير مكتب العشائر الداعشي حالياً). أتذكر جيداً. لم نصدق وقتها. كانت اثنتا عشر جثة لعناصر من جيش النظام، قتلوا على حاجز «بير عاشق»، شرقى تل أبيض.

بعد أن ذهب فيصل ومجموعته، نزلت وثلاثة أشخاص آخرين. لم تتوقف على الحواف الداخلية للهوّة سوى جثتان؛ الأولى على عمق حوالي عشرة أمتار، والثانية على عمق خمسة عشر متراً. وفي الليل أخرجنها ودفننها بصمت وسرية. سيطر تنظيم الدولة عملياً على تل أبيض بداية تموز عام 2013، عندما خطف أعضاء المجلس المحلي للمدينة. وبدأ مسلسل يومي لرمي الجثث والأحياء. في هذه الفترة انتسب أحد إخوتي لتنظيم الدولة. قال ذلك وأشار إلى زاوية الغرفة حيث جسد رجل نحيف، جلد على عظم، أشيب الشعر تماماً، عيناه غائرتان وساقاه كساقي طفل أصابه جوع مديد.

أذكر تاريخ ذلك اليوم، الرابع عشر من تموز 2013. عُيِّن أخي في "الحسنة" في سلوك، وهي أول حسبة للتنظيم في سوريا كلها، وصار مقرّاً من أبو ياسر العراقي، الأمني الأول في تل أبيض. بقي أبو ياسر هذا في وظيفته منذ أواسط نيسان 2013 وحتى انتقاله إلى الرقة في الأيام الأخيرة من العام. وكان مسؤولاً عن عمليات خطف واغتيال النشطاء ومنتسبي الجيش الحر والتجار وأي شخص يشتم منه أنه يعارض التنظيم، وكان مكانه المفضل لإخفاء أجساد الأحياء منهم وجثث الأموات هو الهوّة. هذا "الرجل"، وأشار إلى أخيه، "هو ذاكرة الهوّة، ولكن لا ذاكرة له الآن كما ترى. ورّح أحكي لك قصته بعد شوّي".

تصدق.. أكثر من ثلاثة آلاف جثة لسوريين.. علوبيين، وسنة، ومسيحيين، وأكراد، ويزيديين، ومن سلمية، ومن عفرين، ومن السويداء. من مقاتلي الجيش الحر، ومن عساكر نظام، ومن "أخوة المنهج" في جبهة النصرة، وكل من يعارض.. سوريون، كلهم سوريون. ألقيت أجسادهم وجثثهم في بيت السعلوة.

إحدى المرات، وعلى ما أذكر كان ذلك في أواخر تموز 2013، جاء أبو أنس العراقي إلى بيتنا كي يصطحب أخي، وكان معه مسلحون جالسين في صندوق سيارة البيكـ.أب يحيطون بأربعة شبان من كتائب أحفاد الرسول التابعة للجيش الحر. كان الأربعه معصوب الأعين ومكبلي الأيدي. عندما عاد أخي، روى التالي: نقلناهم نحو الهوته، توقفنا بأمر من أبو أنس العراقي وخلف الزياب "أبو مصعب"(الأخير كان أمير التنظيم في تل أبيض) على بعد عشرين متراً من الهوته. وجهوا المختطفين نحو الهوته بعد أن فكوا القيود، وتركوه معصوب الأعين. قرروا عليهم بياناً ارتجلوه بالإعفاء عنهم من قبل أبو بكر البغدادي نفسه. وطلبوا منهم أن يركضوا بأقصى سرعة، وأن يعدوا للمائة قبل أن يزيلوا الأعصابه عن عيونهم. صدق المخطوفون الأربعه، وركضوا، ليعقووا بعد خطوات في بيت "السلعة" وسط ضحكات الدواعش وقهقاتهم.

بعدها بأيام قليلة أحضر أبو ياسر العراقي، وأمير الحدود مصطفى العمر، الملقب بـ "التمساح"، وعبد العزيز العمر "أبو سليمان"، أمير الشركراك، وخلف الزياب "أبو مصعب"، مجموعة من أكراد تل أبيض. ثمانية، خمس جثث، وثلاثة أحياء، وتم رميهم. أما التهم فهي أي شيء من العدة المحفوظة لديهم، مثل الردة، ومعاداة الدولة، والزنا، والإلحاد، وسب الذات الإلهية، والفساد في الأرض، و العمالة، وكونهم ناشطين، وصحوات، و"جيش كر"، وبكته، وأحفاد إبليس، وحتى إعلاميين.. لمجرد أنهم إعلاميين. دكانٌ كبير رفوفه ممتلئه بالتهم.

أكثر من أُلقي في جوف الهوته هم من شباب الرقة، وكثير من جرى رميهم لم يكن من المسموح معرفة أسمائهم، وعلى الأغلب لا يحضر رميهم سوى كتيبة التماسح التي يقودها أبو ياسر العراقي.

مع الزمن وكثرة الجثث فاحت روابح قاتلة، تصل إلى مسافة كيلومترات. فأحضر التنظيم أربعة عشر صهريج نفط خام من دير الزور، وشاحنتي قلاب تحملان أكثر من 300 جثة، وألقاها كالقمامه وصب فوقها النفط في فوهة «الهوته». وكانت موقدة كبيرة استمر دخانها ونارها عدة أيام. وامتلاجـ جـوـ المـنـطـقـةـ بـرـائـةـ النـفـطـ وـالـلـحـمـ الـمـحـرـقـ. علىـ بـعـدـ كـيـلـوـمـتـرـاتـ كـثـيرـةـ كانـ بـإـمـكـانـ المـرـءـ أـنـ يـشـمـ الرـائـحةـ.

لم يدم شهر العسل بين أبو ياسر وكتيبته وبين أخي طويلاً. فقد عرف أخي أن الصناديق التي يحملها إلى الحدود التركية ليست سوى آثار منهوبة تُباع لخواجات، ولم يكن الخواجات خبراء عسكريين كما أوهموه، بل تجار آثار. وعرف أخي أن "المهاجرين" الذين يقيمون مقراتهم فوق التلال إنما كانوا يتبعون عن آثار البلد ويتجرون بها.

بـثـ أـخـيـ شـكـواـهـ لـعـدـدـ مـنـ أـصـدـقـائـهـ فـقـرـرـوـاـ أـنـ يـرـفـعـوـاـ شـكـواـهـ إـلـىـ "ـأـمـيرـ المـؤـمنـيـنـ"ـ،ـ وـلـكـنـ الـأـخـبـارـ وـصـلـتـ إـلـىـ أـبـوـ يـاسـرـ.ـ عـنـدـهـ قـامـ أـبـوـ يـاسـرـ بـحـمـلـةـ اـعـتـقـالـاتـ شـمـلـتـ الـجـمـيـعـ،ـ بـمـنـ فـيـهـمـ أـخـيـ الـذـيـ هـمـسـ فـيـ أـذـنـ زـوـجـتـهـ:ـ سـيـرـمـونـنـاـ فـيـ الـهـوـتـةـ!ـ كـانـتـ السـاعـةـ الـعاـشرـةـ مـنـ صـبـاـحـ 12/7/2014ـ.ـ رـكـبـتـ "ـالـبـيـكـ آـبـ"ـ وـتـوـجـهـتـ إـلـىـ بـيـتـ الـلـبـدـ الرـحلـ غـيرـ بـعـدـ عنـ الـهـوـتـةـ،ـ وـمـنـ هـنـاكـ رـحـتـ أـرـاقـبـ.ـ وـفـعـلـاـ لـاحـتـ مـنـ بـعـيدـ ثـلـاثـ سـيـارـاتـ بـاتـجـاهـ القـبـرـ الـذـيـ لـاـ يـشـبـعـ.ـ تـتـقـدـمـ السـيـارـاتـ سـيـارـةـ أـبـوـ يـاسـرـ الـعـرـاقـيـ.ـ أـعـرـفـهـاـ.ـ تـوـقـفتـ السـيـارـاتـ عـنـ الـهـوـتـةـ مـدـةـ لـاـ تـجـاـوـزـ نـصـفـ السـاعـةـ،ـ وـغـادـرـتـ.ـ مـاـ إـنـ غـابـتـ عـنـ النـظرـ حـتـىـ كـنـتـ عـلـىـ مـدـخلـ الـهـوـتـةـ.ـ وـقـفـتـ أـصـيـخـ السـمـعـ عـلـىـ أـسـمـعـ صـوتـاـ أـوـ أـنـيـنـاـ،ـ وـلـكـنـ صـفـيرـ الـرـيحـ لـمـ يـمـكـنـيـ مـنـ سـمـاعـ أـيـ شـيءـ.

قدـتـ السـيـارـةـ مـسـرـعاـ إـلـىـ سـلـوكـ.ـ أـحـضـرـتـ عـدـدـ بـكـرـاتـ حـبـالـ،ـ وـمـجـمـوعـةـ أـبـيـالـ وـ"ـجـوبـ"ـ حـمـالـةـ (ـطـبـقـاتـ مـنـ الـلـبـادـ مـعـدـاتـ بـصـورـةـ خـاصـةـ لـحـمـاـيـةـ ظـهـورـ الـحـمـالـيـنـ مـنـ أـكـيـاسـ الـقـمـحـ وـالـشـعـيرـ الـتـيـ يـحـمـلـونـهـ...ـ)،ـ وـرـجـعـتـ إـلـىـ الـهـوـتـةـ.ـ رـبـطـتـ الـحـبـلـ بـمـقـدـمةـ السـيـارـةـ،ـ لـبـسـتـ الـجـوبـ،ـ وـحـمـلـتـ بـيـلاـ بـيـديـ وـأـخـرـ عـضـصـتـ عـلـيـهـ بـأـسـنـانـيـ،ـ وـثـالـثـ فـيـ جـيـبيـ،ـ وـانـهـدرـتـ.ـ أـنـيـنـ مـكـتـومـ قـادـنـيـ إـلـىـ أـوـلـ شـخـصـ عـلـىـ عـمـقـ ثـلـاثـيـنـ مـتـراـ حـسـبـماـ أـقـدرـ.ـ رـكـزـتـ ضـوءـ "ـالـبـيـلـ".ـ كـانـ وـجـهـ لـلـأـسـفـلـ وـشـلـالـ دـمـ يـنـحدـرـ مـنـ رـأـسـهـ.ـ مـدـدـتـ يـدـيـ لـأـقـلـيـهـ وـأـرـىـ وـجـهـ،ـ وـلـكـنـهـ سـقطـ فـيـ الفـرـاغـ الـمـعـيـقـ.ـ غـيرـ بـعـيدـ،ـ أـمـتـارـاـ إـلـىـ الـأـسـفـلـ،ـ كـانـ هـنـاكـ شـخـصـ آـخـرـ.ـ عـرـفـتـ مـنـ ثـيـابـهـ إـنـهـ أـخـيـ.ـ نـزـلتـ إـلـيـهـ.ـ رـبـطـهـ عـلـىـ "ـجـوبـ"ـ الـذـيـ عـلـىـ ظـهـرـيـ.ـ وـبـدـأـتـ أـصـعـدـ وـكـأنـ وزـنـهـ لـيـسـ سـبـعينـ كـيـلوـ

غراماً، بل كأني كنت أحمل كيساً من ريش. صعدت وصعدت. أقدر أنها أكثر من أربعين متراً. وفي الخارج أنزلت جسد أخي. أتاني إحساس أنه حي. عصف من أفكار يضج في رأسي: إلى أين سآخذه؟ دون وعي وضعته في صندوق الشاحنة وانطلقت نحو الحدود التركية عبر الطرق الفرعية، وصلتها عند المغرب. ومن هناك، وبمساعدة أحد المهربيين اجتنزا الحدود، ومنها إلى المستشفى. بعد سبعة عشر يوماً قالوا لي إنه سيحيا، وإنه مصاب بالشلل من خصره وما تحت، وفاقد للنطق وللذاكرة.وها هو كما تراه، لم يشفع له انضمامه للتنظيم.

ممنوع أن تنظر في جوف السعلوة المظلم، وإنْ تصادف ونظرت، فهكذا هو مصيرك.. وأشار إلى أخيه.

زمان الوصل

المصادر: